قاعدة السلوك البشري

ما من سلوك بشري في معزل عن قاعدة تسيره.

إن بعض الظرفاء ينفون هذه البداهة ويسعون جاهدين إلى بناء «فلسفة» اللعب حيث لا أثر لأي لجوء إلى قواعد. والواقع أن سلوكاً بلا قواعد هو تناقض في التعبير. ونحن نعلم حق العلم كيف ينتهي وهم كهذا في السياسة: بالدكتاتورية الكليانية أو سياسة الفوضى المتفاوتة الخطورة اللتين ترفضان أيضاً ضغوطات القانون عاماً كان أم خاصاً.

عم تنجم ضرورة القاعدة تلك توصلا إلى سلوك حقيقي؟ لم لا بد من قاعدة لإنقاذ السلوك؟ ذلك أن السلوك، بلا قاعدة، يتحول عنفاً بحتاً، وبتعبير آخر، فوضى. إن قاعدة السلوك البشري تطرح إذا مسألة أساسية هي مسألة العلاقات القائمة بين النظام والفوضى.

إن الجدلية بين النظام والفوضى هي من المواضيع المحببة لدى كبار علماء اليوم. ولقد ابتكر أحدهم حتى صيغة «النظام انطلاقاً من الضجيج»، أي انطلاقاً من الفوضى. وبتعبير آخر، إن المتصل يغذيه المنفصل والنظام تغذيه الفوضى... ذلك لا يعني أن القاعدة تزول وإنما يعني أنها مرغمة في استمرار، إزاء التغيرات المتوالية، على أن تعيد تنظيم نفسها. وهكذا، لا تني تتكيف، في علم الأحياء، المشاريع المحددة بإحكام ودقة، التي أعدتها الطبيعة، مع الأحوال الجديدة. ثمة قاعدة في كل منحى من مناحي الحياة، ولكنها قاعدة ذات مرونة قصوى.

ويمكننا، من جهة أخرى، أن نتساءل هل التقدم ممكن في غياب القواعد. وتبدو القاعدة كأنها تحد يحث على التجديد. لا بد من توافر عوائق لتنمية الرغبة. ولا مندوحة عن توفر قواعد لاثارة الاختراع، ويتحتم علينا الحفاظ على القواعد لا باسم لا أدري أية عبادة للشكل، وإنما من أجل إنقاذ إمكان الإبداع، القاعدة هي العائق الذي علينا تجاوزه أو الالتفاف حوله تذليلاً لصعوبته. وان جمالية الكاتب الفرنسي بول فاليري (١٨٧١ - ١٩٤٥) ترتكز حصراً على مبدأ خصوبة القاعدة ذلك. إن الفنان ليتلعثم إن لم تتوافر إرغامات عليه مراعاتها. والمرء لا يرتكز إلا على ما يقاوم.

إن مراعاة قاعدة للسلوك لا تعني تنظيماً عشوائياً. ولا تصلح قاعدة ما لم تتح لها مرونتها الاستجابة لجميع الإمكانات، لذا، إن القواعد الأكثر فاعلية هي القواعد الأكثر بساطة، التي يعبر عنها ببضعة أسطر. وحسبنا أن نذكر القانون الوراثي الذي تجابه بساطته أكبر التعقيدات.

في مستوى السلوك الشخصي، هل في استطاعتنا أن نغامر بقولنا إن الأساس في أن يعطي كل منا نفسه قانوناً بسيطاً وواضحاً؟ قديماً كانوا يتحدثون بقانون الشرف، ويتضح لنا اليوم بالذات أن القول ليس من السوء في شيء.

فما رأي جميع الذين يتهربون من كل قاعدة في مجتمعاتنا «النامية» خصوصاً، وذلك في غير مجال وغير صعيد، مما ألمعنا إليه في هذه العجالة؟.

د. جهاد نعمان